

تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ بِاللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

نصف
الحزب

٢٧

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْنَقَ الْعَقْرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أى قرب ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [المنكسوت: ٥٣-٥٤] وقد ذهب الضحاك فى تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال فى قوله: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ بِاللَّهِ﴾ أى فرائضه وحدوده، وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيباً، قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال ابن أبي حاتم^(١): ذكر عن يحيى بن آدم، عن أبى بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة، عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادى الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم، فيقولون: نعم، ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فوالذى نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدح حوضه فما يسقى فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشغل الناس» ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أى الوحى، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ

(١) ضعيف: وأخرجه الحاكم فى المستدرک (٤/٥٨٢)، برقم (٨٦٢٢)، وانظر السلسلة الضعيفة، برقم (٥٠٠٩).

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِي﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِيٰ مِن مَّلَآئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥-١٦]. وقوله: ﴿أَن أُنذِرُوا﴾ أى لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أى فاتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى وعبد غيرى .

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْكُلُوا لِقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَجْزِي اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النجم: ٣١] ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أى مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤-٥٥]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩] وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه ^(١) عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ فى كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وبيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة» .

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٥٢﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِىَّ تَكُونُوا بِلَيْفِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْآنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم، كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًا من المرعى فإنها تكون أمدته خواصر وأعظمه ضروعًا وأعلاه أسنمة ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ﴾ وهى الأحمال الثقيلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِىَّ تَكُونُوا بِلَيْفِيهِ إِلَّا يَشِقُّ

(١) حسن: المسند (١٧٣٨٧). ابن ماجه برقم (٢٧٠٧) من حديث بسر بن جحاش القرشي وانظر صحيح ابن ماجه .

الأنفُسُ» وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كقوله: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ شَتَّى كَمَا فِي بَطُونِهَا وَلَكِنَّ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ فَرِيضَةً مِّمَّا يَكْتَسِبُونَ فَأَلَىٰ آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١]، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ﴾ أى ربكم الذى قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَعِيتًا أَيْدِيًا أَنْفُسًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [س: ٧١-٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُقْتَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا وَفَاءٌ﴾ أى ثياب، والمنافع ما تنتفعون به من الأظعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَاءٌ وَمَنْفِعٌ﴾ نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا وَفَاءٌ﴾ أى لباس ينسج، ﴿وَمَنْفِعٌ﴾ مركب ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿وَفَاءٌ وَمَنْفِعٌ﴾، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغه، وكذا قال غير واحد من المفسرين بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْحَيْلَ وَالْعِجَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التى جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فضلها على الأنعام، وأفردها بالذكر، استدل من استدل ممن ذهب من العلماء إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبى حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهى حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير^(١): حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عليه، أنبأنا هشام الدستوائى، حدثنا يحيى بن أبى كثير عن مولى نافع بن علقمة، عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا وَفَاءٌ وَمَنْفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] فهذه للأكل، ﴿وَالْحَيْلَ وَالْعِجَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب، وكذا روى من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله، وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضًا رضى الله عنه، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده^(٢): حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقرية بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معد يكرب، عن أبىه عن جده عن خالد بن الوليد رضى الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وأخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه^(٣) من حديث صالح بن يحيى بن المقدم وفيه كلام به .

(٢) المسند (١٦٣٧٦).

(١) فى التفسير (٨٢/١٤).

(٣) ضعيف النسائى (٤٣٣١)، أبو داود (٣٧٩٠)، ابن ماجه (٣١٩٨)، وانظر ضعيف ابن ماجه.

ورواه أحمد أيضًا^(١) من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدم عن جده المقدم بن معد يكره قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقرم أصحابنا إلى اللحم فسألوني رمكة فدفعها إليهم، فحبلوها وقلت: مكانكم حتى أتى خالدًا فأسأله فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم، ثم قال: «أيها الناس: إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا يحل أموال المعاهدين إلا بحقها وحرام عليكم لحوم الأتني الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير» والرمكة هي الحجر، وقوله حبلوها أى أوثقوها فى الحبل ليذبحوها، والحظائر البساتين القريبة من العمران، وكان هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم، فلو صح هذا الحديث لكان نصًا فى تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت فى الصحيحين^(٢) عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن فى لحوم الخيل.

ورواه الإمام أحمد وأبو داود^(٣) بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل. وفى صحيح مسلم^(٤) عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة، فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعى وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وذكر وهب بن منبه فى إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله أعلم. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن إنزاع الحمر على الخيل لثلا ينقطع النسل. قال الإمام أحمد^(٥): حدثنى محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة عن الشعبي عن دحية الكلبي قال: قلت يا رسول الله، ألا أحمل لك حمازًا على فرس فتنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون».

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا دُونَهَا فَأَلْزَمَ خَبرَ الْأَرْزَادِ النَّفْقُونَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَبْنَؤْءَ أَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرَى سَوْءَ يَكْمُ وَرَيْشًا وَلِيَاسَ النَّفْقُونَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] ولما ذكر تعالى فى هذه السورة الحيوانات من

(١) المسند (١٦٣٧٥).

(٢) البخاري برقم (٥٥٢٤)، مسلم برقم (١٩٤١)، من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) المسند (١٤٤٢٦)، وأبو داود (٣٣٨٩). (٤) البخاري برقم (٥٥١٢)، مسلم برقم (١٩٤٢).

(٥) المسند (١٨٣١٦).

الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله، وقال السدي، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي تبيين الهدى والضلال. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد هنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي خائر مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود (ومنكم جائر) ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلِيفِينَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].



﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: أى وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أى ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعى. وروى ابن ماجه ^(١) أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس.

وقوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ شَجَرًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ يَوْمَ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومنه الجسم في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذى جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدره لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسمييره، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤] ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

(١) ابن ماجه (٢٢٠٦)، من حديث على بن أبي طالب.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَكْرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَمَّا كُمُتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسْبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَعَلَّمَنَّاكَ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أى تشقه، وقيل تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل تمخره بجؤجؤها وهو صدرها المسنم - الذى أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَمَّا كُمُتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار^(١) فى مسنده: وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية البغدادى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبىه، عن أبى هريرة قال: كلم الله هذا البحر الغربى وكلم البحر الشرقى، فقال للبحر الغربى: إنى حامل فىك عباداً من عبادى، فكيف أنت صانع فىهم؟ قال: أغرقهم، فقال: بأسك فى نواحيك، وأحملهم على يدى، وحرمة الحلية والصيد، وكلم هذا البحر الشرقى فقال: إنى حامل فىك عباداً من عبادى فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدى وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحلية والصيد، ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.

ثم ذكر تعالى الأرض وما جعل فيها من الرواسى الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أى تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَّا﴾ [النازعات: ٣٢] وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحت صبيحاً وفيها رواسيها.

(١) ذكره الهيثمي فى المجمع (٥/٢٨٢)، وقال: رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمري.

وقال ابن جرير^(١): حدثني المثنى، حدثني حجاج بن منهال، حدثنا حماد عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أى رب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويجعلون على الخبث؟ قال: فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجح.

وقوله: ﴿وَأَنْتَزَكْنَا سُبُلًا﴾ أى جعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر رزقًا للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والفقار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة، وجنوبًا وشمالًا. وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حينًا وتنقطع فى وقت، وما بين نبع وجمع، وقوى السير وبطيته بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فى الأرض سبلاً أى طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَبَالًا سُبُلًا﴾ الآية [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكُمِ﴾ أى دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برًا وبحرًا إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى فى ظلام الليل، قاله ابن عباس، وعن مالك فى قوله: ﴿وَعَلَّمَكُمِ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يقول: النجوم وهى الجبال، ثم قال تعالى منبها على عظمتها وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التى لا تخلق شيئًا بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازى على اليسير، وقال ابن جرير: يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٥٦﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْعَثُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أى هى جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْعَثُونَ﴾ أى لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذى يعلم كل شىء وهو خالق كل شىء.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِيدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٥﴾ لَا جَرَمَ أَنْ تَأْتِيَهُمُ آيَاتُ اللَّهِ مُتَوَاتِرَةٌ وَلِيُحْشِرَهُمْ آيَاتِهِمْ وَلِيُعْلِمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلِيمٌ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ لَهَا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَنُفْيٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيدهم كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِيلِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ولهذا قال ههنا ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى حقاً ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ آيَاتُ اللَّهِ مُتَوَاتِرَةٌ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ كَرِهْتَ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٦﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿مَادَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ كَرِهْتَ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين، أى مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبْنَاهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أى يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩] وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما ﴿فَكَرَّ وَفَدَّرَ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى﴾ [المدثر: ١٨-٢٤] أى ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء فى الحديث «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَمَعُ أَثْقَالَهُمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ [المنكيات: ١٣] وهكذا روى العوفى عن ابن عباس فى قوله ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنها كقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَمَعُ أَثْقَالَهُمْ﴾ [المنكيات: ١٣]. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، الترمذى (٣٦٧٤)، أبو داود (٤٦٠٩)، من حديث أبي هريرة.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْفَوَاعِدِ فَنَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْدَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء الذي قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ بَيَّنَّنَاهُمْ مِنَ الْفَوَاعِدِ﴾.

وقال آخرون: بل هو بختنصر، وذكروا من المكر الذي حكى الله ههنا كما قال في سورة إبراهيم ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢] أى احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكَرُ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [الآية: سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ بَيَّنَّنَاهُمْ مِنَ الْفَوَاعِدِ﴾ أى اجتته من أصله وأبطل عملهم، وأصلها كقوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْعَرْبِ أُطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿فَأَنبَتْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ بِيُؤْتِيهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأُولَى الْأَنْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال الله ههنا: ﴿قَالَ اللَّهُ بَيَّنَّنَاهُمْ مِنَ الْفَوَاعِدِ فَنَحَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْدَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أى يظهر فضائحهم، وما كانت تجتبه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ثُبِّي السَّرَابِ﴾ [الطارق: ٩] أى تظهر وتشتهر كما فى الصحيحين^(١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند إسته بقدر غدرته، فيقال هذه غدره فلان بن فلان» وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقررًا لهم وموبخًا ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون فى سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] ﴿قَالَ لَمْ يَنْ فُؤًا وَلَا ناصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحققت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة فى الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوْفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا الْسَّلَاةَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَدْخَلُوا أَتْرَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض
أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْفَوْا الْسَّلَاةَ﴾ أى اظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾
كما يقولون يوم المعاد ﴿وَأَقْوَرَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوْمَ يَبْعَهُمُ اللَّهُ جِيحًا فَيَقْتُلُونَ لَهُمُ كَمَا يَخْلُقُونَ
لَهُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] قال الله مكذباً لهم فى قبلهم ذلك ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَدْخَلُوا أَتْرَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى بشس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان
متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم معاتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم فى
قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم وخلدت فى نار جهنم
﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحَنَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْضَوْنَ
عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ثلاثة

أربع

الحزب

٢٧

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا
يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ تَوْفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾
فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾ أى أنزل
خيراً، أى رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وأمن به. ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله
فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]
أى من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه عمله فى الدنيا والآخرة، ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير أى
من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَلَكُمْ
قُرْآنٌ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ الآية [القصص: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [ال عمران: ١٩٨] وقال
تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثَرٌ﴾ [الاعلى: ١٧] وقال لرسوله ﷺ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] ثم
وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من قوله دار المتقين أى لهم فى الآخرة جنات عدن، أى مقامة يدخلونها
﴿يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا
شَتَّهِبَهُ الْفَتْحُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْشُرُ فِيهَا خَيْدُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧١]. وفى الحديث: إن السحابة لتمر
بالملا من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم حتى إن
منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أى كذلك يجزى الله
كل من آمن به واتفاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أى مخلصون

من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ فَرِحْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا رَبُّنَا رَبُّكُمْ فاجْعَلْ لَنَا رَسُولًا نَتَّبِعُهُ فَإِنَّا كُنَّا فِي الْكُفْرِ أَذًى وَلَوْلَا إِذْ سَأَلْتَهُمْ لَاقُوا رَبَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واعتراهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ بعثنا في كل أمة رسولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن اعتزاز المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من البحائر والسوائب والوسائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل الله به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنا منه، قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث

الشرك في بنى آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحٌ إِلَيْهِ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْتَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير عليهم وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عقوبة المتكذِبِينَ﴾ أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ [محمد: ١٠]، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا﴾ [المائدة: ٤١] وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصِحُّوا إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيًا لَّمْ يَنْدِرْهُمْ فِي طَعْنِيهِمْ يَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أى شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أى من أضله، فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أى لا أحد ﴿وما لهم من نصير﴾ أى ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَنِي وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٥] لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أى اجتهدوا فى الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أى استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك وحلفوا بذلك على نقيضه، فقال تعالى مكذبًا لهم وراذًا عليهم ﴿بنى﴾ أى بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أى لا بد منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أى للناس ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أى من كل شىء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئَةِ﴾ [النجم: ٣١] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ أى فى أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من

يموت، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تُكَذِّبُونَ أَفِيحِرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمراد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمr: ٥٠] وقال ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [القصص: ٢٨] وقال: في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أى أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون

أى أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وقال ابن أبى حاتم^(١): ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج عن ابن جريج، أخبرني عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى: سبني ابن آدم ولم يكن يبغي له أن يسبني، وكذبنى ابن آدم ولم يكن يبغي له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قال وقلت: ﴿بَلْ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَلَكَّأْتُ﴾ [المائدة: ٧٣] وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. هكذا ذكره موقوفاً وهو فى الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] ﴿٥١﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والمخلان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبى طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد فى جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضى الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبى وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها فى الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم فى البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا، فقال: ﴿وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أى مما أعطيناهم فى الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٠٥/١٤).

رسوله، ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَتُبَوَّئِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى صبروا على أقل من آذاهم من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
 بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قال الضحاك: عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكرت منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية [يونس: ٢]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. يعنى أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكروتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُوءِ﴾ [يوسف: ١٠٩] ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وكذا روى عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وقاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبى جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر، صحيح فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة. وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلى وابن عباس وابنى على الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلى بن عبد الله بن عباس، وأبى جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذى حق حقه ونزل كلاً المنزل الذى أعطاه الله ورسوله واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سُمِّحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَّ النَّاسُ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْنَتْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣-٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الانبيا: ٨-٩] وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿رَكُلٌ مَثْوٍ فَعَلَوْهُ فِي

الزُّبُرِ ﴿الْقَمَر: ٥٢﴾ وقال ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى القرآن ﴿لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له، لعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَقَلَّهْمُ يَنْفَكُرُونَ﴾ أى ينظرون لأنفسهم فيهدتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 ﴿١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ

رَجِيمٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [المسك: ١٦-١٧] وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أى فى تقلبهم فى المعاشى واشتغالهم بها فى أسفار ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدى: تقلبهم أى أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك وقاتدة ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ فى الليل والنهار كقوله ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سُبْحًا وَهُمْ يَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨] . وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه . وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أى أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العوفى عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك، وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقاتدة وغيرهم . ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت فى الصحيحين^(١) وفيهما «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وَكَأَنِّ مِنْ قَرِيْبَةٍ آمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَعِيْرِ﴾ [الحج: ٤٨] .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾
 ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾

سجدة

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أى بكرة وعشيًا فإنه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد: إذا زالت الشمس

(١) البخارى برقم (٤٦٨٦)، مسلم برقم (٢٥٨٣)، من حديث أبى موسى .

سجد كل شيء لله عز وجل، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله ﴿وَهُزُّ دِحْرُونٍ﴾ أى صاغرون .
وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيها. وقال أبو غالب
الشيباني: أمواج البحر صلواته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: ﴿وَلَيْلَىٰ يَسْجُدُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلَيْلَىٰ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمًا لَهُمْ بِالْقُدُورِ
وَالْأَصَابِلِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقوله: ﴿وَالْمَلَكُوتُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى تسجد لله أى غير مستكبرين
عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿وَيَقْعَلُونَ مَا
يَأْمُرُونَ﴾ أى مثابرين على طاعته تعالى وامثال أوامره، وترك زواجره .

الحزب

٢٨

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَجَدَّدُوا إِلَهُينِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَمْ يَأْمُرْ بِاللِّسَانِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا يَكُفُّ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ تُرٌّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ
فَالْيَوْمَ تَجْتَرُونَ ﴿٣٢﴾ تُرٌّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء
وخالقه وربّه ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدى وقاتدة وغير
واحد: أى دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً له، أى له العبادة وحده ممن
فى السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتُغُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [إل عمران: ٨٣] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخير،
وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أى ارهبوا أن تشركوا به شيئاً وأخلصوا له الطلب،
كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق
ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿تُرٌّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَوْمَ تَجْتَرُونَ﴾ أى لعلمكم
أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه وتسالونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين
به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُجِّرُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كُفْرًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال مهنا: ﴿تُرٌّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ قيل: اللام مهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل بمعنى قيصنا لهم ذلك ليكفروا أى يستروا
ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المسدى إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾
أى اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى عاقبة ذلك .

﴿وَيَعْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّانَ عَمَّا كَتَبْتَ تَقَرُّونَ ﴿٣٥﴾ وَيَعْمَلُونَ لِلَّهِ
الْبَنَاتِ سُحْنَةً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٣٧﴾
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير،

وجعلوا لها نصيبًا مما رزقهم الله فقالوا ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيَّتِهِ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أى جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله وفضلوهم أيضًا على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه واثفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَشَتَانُ عَمَّا كَفَتُ تَفْتَرُونَ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنانًا، وجعلوها بنات الله وعبودها معه، فأخطأوا خطأ كبيرًا فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدًا ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الْكُفْرُ أَكْبَرُ وَلَهُ الْأَنْفُ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ بِهِنَّ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله ههنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أى فمن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا إِنَّمْ مِنْ إِنْكِهِمْ يَقُولُونَ وَذَكَرَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى النَّبَاتِ عَلَى الْبَشَرِ مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأمنون لأنفسهم من البنات التى نسبوا إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أى كثيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَلِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَزَّىٰ مِنَ الْقَوْرِ﴾ أى يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سُوءِ مَا يُبَشِّرُ بِوَيْهِ أُنْثَىٰكُمْ عَلَىٰ هُوْبٍ أَوْ يَدْسُهُ فِي التَّرَابِ﴾ أى إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَوْ يَدْسُهُ فِي التَّرَابِ﴾ أى يثدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أ فمن يكرهونه هذه الكراهة ويأمنون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى بشس ما قالوا، وبشس ما قسموا، وبشس ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَلِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

وقال ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أى النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَنْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَءَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنْتُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة أى لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل مسمى أى لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص أنه قال: كاد يجعل أن يعذب بذنوب بنى آدم، وقرأ الآية ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وكذا روى الأعمش عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة قال: قال عبد الله: كاد يجعل أن يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم.

وقال ابن جرير^(١): حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعى، حدثنا

(١) الطبري فى التفسير (١٤/١٢٦).

محمد بن جابر الحنفى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه، فقال: بلى والله حتى إن الحُبَارَى لتموت فى وكرها هو الأَبْظَلَمُ الظالم.

وقال ابن أبى حاتم^(١): حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك، بن عبيد الله بن مسرح، حدثنا سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمه أبى مشجعة بن ربيع عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر».

وقوله: ﴿وَمَعْمُورٌ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لُحْمٌ﴾ إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠] وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطَّلَعُ إِلَّا سَاعَةً قَائِمَةً وَلَئِن رُجِمْتَ الْكَاذِبَةُ لَإِنَّ لِي عِندَهُمُ الْلُحْمَ فَلْيُنَبِّئَنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَيُذِيقْنَهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [نصفت: ٥٠].

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآبَائِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨] وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يُبَدَّ هَذَا أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودَتْ الْكَاذِبَةُ لَإِنَّ رَبِّي لَأَاجِدَنَّ خَبْرًا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦] فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق إنه وجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السيئات وتجاوزن الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لُحْمٌ﴾ أى الغلمان.

وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ لُحْمٌ﴾ أى يوم القيامة كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد، ولهذا قال تعالى راداً عليهم فى تمنيههم ذلك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْفَعُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لُحْمًا يَوْمَئِذٍ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وعن قتادة أيضاً: مفراطون أى معجلون إلى النار من الفراط، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أى يخلدون.

(١) أخرجه العقيلي فى الضعفاء الكبير (١٣٤/٢)، وقال: سليمان بن عطاء لا يتابع عليه بهذا اللفظ.

﴿تَاللَّهِ لَعَدَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَوْا لِوَيْهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه. ﴿فَهُوَ وَلِيَهُمْ الْيَوْمَ﴾ أى هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم، ولهم عذاب اليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليك الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أى للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أى لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمُوا لَشَرِيحِينَ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾﴾
يقول تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهى الإبل والبقر والغنم ﴿لعبرة﴾ أى آية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿شفيكراً﴾ أي بطنه في بطن هذا الحيوان، وفى الآية أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أى نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان، وفى الآية الأخرى ﴿بطناً﴾ أى بطنه، ويجوز هذا وهذا، كما فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿المدثر: ٥٤-٥٥﴾ وفى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سَجَّاتٌ ﴿النمل: ٣٥-٣٦﴾ أى المال.

وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِ قَرْنَيْ قَرْنٍ وَدَمْرٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أى يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته، من بين قرن ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّرِيحِينَ﴾ أى لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً شئى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنان، وما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك.

كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق

الحسن ما أحل من ثمرتهما .

وفى رواية : السكر حرامه ، والرزق الحسن حلاله ، يعنى ما يبس منهما من تمر وزبيب ، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونيذ ، حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما فى الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَتًا فِيهَا مِنِ الْعَبُورِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَنْوٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٤-٣٦] .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية ، والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورحصها بحيث لا يكون بينها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذلة لها ، أى سهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمناً ولا يسرة ، بل إلى موضعها وبيتها وما لها فيه من فراخ وعسل ، فتبنى الشمع من أجنتها وتقوى العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أى مطيعة ، فجعلناه حالاً من السالكة ، قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لِمِمَّا رَكَبَتْهُنَّ وَمَتَّى يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر ، وهو أنه حال من الطريق ، أى فاسلكيها مذلة لك ، نص عليه مجاهد ،

وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح . وقد قال أبو يعلى الموصلى ^(١) : حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا سكين بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « عمر الذباب أربعون يوماً ، والذباب كله فى النار إلا النحل » .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومآكلها منها .

وقوله : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى فى العسل شفاء للناس ، من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من تكلم على الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس ، لكان دواء لكل داء ، ولكن قال ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشىء يداوى بضده .

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٣٠) ، برقم (٤٢٣١) ، وقال الهيمى فى المجمع (٤/ ٤٤) ، رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

وقال مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني القرآن، وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا فَشَقَّاهُ لَكُمْ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم^(١) في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أختي استطلق بطنه، فقال «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرأ. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفء، ثم سقاه فكذا، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلاح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين^(٢) من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل، هذا لفظ البخاري: وفي صحيح البخاري^(٣) من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي».

وقال البخاري^(٤): حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لدعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى» ورواه مسلم^(٥) من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر به.

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية تصيب ألمًا، وأنا أكره الكي ولا أحبه» ورواه الطبراني^(٧) عن هارون بن ملول المصري عن أبي عبد الرحمن المقرئ، عن عبد الله بن الوليد به، ولفظه «إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم» وذكره، وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه. وقال

(١) البخاري برقم (٥٦٨٤)، مسلم (٢٢١٧).

(٢) البخاري برقم (٥٦١٤)، مسلم بنحوه (١٤٧٤).

(٣) البخاري برقم (٥٦٨٣).

(٤) المسند (١٦٨٦٤).

(٥) مسلم برقم (٢٢٠٥).

(٦) في الأوسط (١٣٥/٩)، برقم (٩٣٣٩).

الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني^(١) في سننه: حدثنا علي بن سلمة هو الليثي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن» وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير^(٢) عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفاً ولهو أشبه.

ورويانا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضی الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفه، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه بذلك فإنه شفاء: أي من وجوه، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿إِن يَطِئَ لَكُمْ عَنْ فَتْوَىٰ رَبِّهِ فَمَا كَلِمَةٌ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنَ الْمَالِ﴾ [النساء: ٤] وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

وقال ابن ماجه^(٣) أيضاً: حدثنا محمود بن خدش حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء» الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجه^(٤) أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكر السكسكي، حدثنا إبراهيم بن أبي عيلة سمعت أبا أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسني والسنوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يارسول الله وما السام؟ قال: «الموت».

قال عمرو: قال ابن أبي عيلة: السنوت الشبت. وقال آخرون: بل هو العسل الذي يكون في زقاق السممن، وهو قول الشاعر:

هم السممن بالسنوت لا ألس فيهم وهم يمنعون الجار أن يتقردا
كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لا ألس فيهم أي لا خلط. وقوله: يمنعون الجار أن يتقردا، أي يضطهد ويظلم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى الملوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الشمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

(١) ضعيف: ابن ماجه (٣٤٥٢)، وانظر ضعيف ابن ماجه.

(٢) الطبري (١٤١/١٤).

(٣) ضعيف: ابن ماجه (٣٤٥٠)، وانظر ضعيف ابن ماجه.

(٤) صحيح: ابن ماجه (٣٤٥٧)، وانظر صحيح ابن ماجه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيْكَ أَرْدَالِ الْأُمَمِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٧١﴾﴾ [الروم: ٥٤]، وقد روى عن علي رضي الله عنه: ﴿أَرْدَالِ الْأُمَمِ﴾ خمس وسبعون سنة، وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف، وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف، ولهذا روى البخارى^(١) عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعوهم أعود بك من البخل والكسل والهرم، وأردل العمر وعذاب القبر، وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة.

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
ثمانين عامًا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئ يعمر فيهمر

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية: يقول لم يكونوا يشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال فى الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم. وقال مجاهد فى هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شاركه مملوكه فى زوجته وفى فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فإله أحق أن ينزهه منك.

وقوله: ﴿أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصرى قال: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق بل يبتلى به كلاً، فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى اقترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبى حاتم.

(١) البخارى برقم (٤٧٠٧).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل ائتلاف ومودة ورحمة، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بنين وحفدة، هم الولد وولد الولد.

وقال سنيدي: حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: بنوك حين يحفدونك ويوفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حفد الولائد حولهن وأسلمت بأكفهن أزمة الأجمال

وقال مجاهد: ﴿بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾ ابنه وخادمه وقال في رواية: الحفدة الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري.

وقال عبد الرزاق^(١): أنبأنا معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه، ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا أى يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل، وهذا الأخير الذى ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي، ورواه عكرمة عن ابن عباس، وقال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخله فى معنى الحفد وهو الخدمة الذى منه قوله فى القنوت: وإليك نسعى ونحفد، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدام والأصهار، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفَدَةً﴾ قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، وكما قال الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كتف الرجل وفى حجره وفى خدمته، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث نصره بن أكثم «والولد عبد لك»^(٢).

رواه أبو داود. وأما من جعل الحفدة هو الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى وجعل لكم الأزواج والأولاد.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك فى

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٤٦/١٤).

(٢) ضعيف: أبو داود (٢١٣١)، من حديث بصرة. وانظر ضعيف أبى داود.

عبادة المنعم غيره: ﴿أَفِيَا بَطِيلٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَيَنْتَمَتِ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أى يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفى الحديث الصحيح «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟»^(١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٢) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾، أى لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أى ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أى لا تجعلوا له أندادًا وأشياءًا وأمثالًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤)

قال العوفى عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا هو المؤمن، وقال ابن أبى نجيج عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما ظاهرا واضحا بيئا لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥)

قال مجاهد: وهذا أيضًا المراد به الوثن والحق تعالى يعنى أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشئ ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أى عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ﴾ أى يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقيل: الأبكم مولى لعثمان، وبهذا قال السدى وعتاة وفتادة وعطاء الخراسانى، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفى عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا كما تقدم.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحى، حدثنا

(١) أخرجه أحمد بنحوه (١٠٠٥)، من حديث أبى هريرة.

(٢) الطبري في التفسير (١٥١/١٤).

حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن إبراهيم عن عكرمة، عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، يعنى قوله ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥]، وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ - إلى قوله - ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان: قاله: والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونه، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجِّحِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥١﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْوِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كُنَّجِ بِالْبَصْرِ﴾ [الزمر: ٥٠] أى فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجِّجِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَفَفِينَ وَجِدَةً﴾ [القمان: ٢٨] ثم ذكر تعالى مثله على عبادته في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذى به يدركون الأصوات والأبصار التى بها يحسون المرثيات والأفئدة، وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء فى صحيح البخارى ^(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من هادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتنى لأعطينه، ولئن دعانى لأجيبه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أى ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله فى ذلك كله، ولهذا جاء فى رواية بعض الحديث فى غير الصحيح بعد قوله

ورجله التي يمشى بها «فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣-٢٤] ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها وسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْلَهُمْ مَتَّعْتُ وَتَقِينُنَّ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا أَلْحَمُّ لِلَّهِ يَكْفِي شَيْئًا بَعِيدًا﴾ [الملك: ١٩] وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ۗ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۗ فَإِن قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ۗ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۗ﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويسترون بها، ويتفنون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا﴾ أي الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثْنَا﴾ أي تتخذون منه اثنا وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة. وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني الشجر ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي حصوناً ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي من الإسلام.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسي، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تُسْلِمُونَ) بفتح اللام، يعني من الجراح، رواه أبو عبيد القاسم بن سلام

عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، ورد هذه القراءة. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَمَلٌ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَمَلٌ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَسْوَأَ مِنْهَا وَأَوْسَرًا وَأَشْعَارَهَا أَفَتَأْتُوا مَثَلًا مِنْهَا وَإِنْ عِينُكُمْ فَأَلْتُمُوهَا كَمَا تَلْتُمُوهَا أَلْتُمُوهَا وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَسْوَأِهَا وَأَوْسَرِهَا وَأَشْعَارِهَا أَفَتَأْتُوا مَثَلًا مِنْهَا وَإِنْ عِينُكُمْ فَأَلْتُمُوهَا كَمَا تَلْتُمُوهَا أَلْتُمُوهَا وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِثْرًا مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مُرْسِلَ تَقِيكُمْ الْحَرِّ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ أى بعد هذا البيان وهذا الامتان، فلا عليك منهم ﴿فَأَمَّا عَلَيْكَ اللَّيْلُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وقد أدهته إليهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أى يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويستندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ جَمَلٌ لَكُمْ مِنْ يَوْمِكُمْ سَكَا﴾ فقال الأعرابي: نعم، قال: ﴿وَجَمَلٌ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ يُؤْتَا تَسْتَحْفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فأنزل الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ فَالْقَوْلُ رَبِّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْفَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى فى الاعتبار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ قَيْدُونَ﴾ [المزملات: ٣٦-٣٥] فلماذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الذين أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ﴾ أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جرى بهم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، فتقول: إنى وكلت بكل جبار عنيد الذى جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء فى الحديث (١)، ثم تنطوى

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٤٢٧٣)، من حديث عائشة.

عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن تَحْتٍ يَّعِيدُ سِعْمًا لِّمَا تَتَّبِعُنَّ وَرَفِيرًا وَإِنَّا لَأَلْوَأُ مِنهَا مَكَانًا حَسِيقًا مُّقْرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا إِلَّآ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدَا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَبَّآ الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا﴾ [الكهف: ٥٣] وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُعْرَفُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الانبيا: ٣٩-٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِنَّا لَرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاءُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن أَسْأَلْ مِننَّ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مِن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْغَاثُ كَانُوا لَمَنَ أَعْنَاءَ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَمَسُّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَا أوتَيْتُكُمُ النَّارَ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ﴾ [المنكبات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَٰةَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أى استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنصُرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّ﴾ [مريم: ٣٨] أى ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَسَىٰ أَلْوَجْهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] أى خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَٰةَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصول لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، أى عذابًا على كفرهم وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أى ينهون الناس عن اتباعه ويتعدون هم منه أيضًا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأمراء: ٣٨] وقد قال الحافظ أبو يعلى^(١): حدثنا شريح بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله فى قول الله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال. وحدثنا شريح بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش عن الحسن، عن ابن عباس فى الآية أنه قال: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هى خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها الليل وبعضها النهار.

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٦/٥)، برقم (٣٣٣).

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، يعنى أمته، أى اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهت إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك» فقال ابن مسعود رضى الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(١).

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم وكل شىء. وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سياتى، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أى للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بالسنة، ووجه اقتراح قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله أعلم - إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلْتَسَنَّكَ الَّذِينَ أُتْرِبُوا إِلَيْهِمْ وَلْتَسَنَّكَ الْمُتَسَلِّينَ﴾ [الأعراف: ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُمْ أَجْمِينَ عَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِأَنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَلْفَى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومبيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

نصف

الحزب

٢٨

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وَلِإِنِ عَابْتُمُوهُمَا فَمَا جِئُوا بِبَيِّنَاتٍ مِمَّا عَفُوتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقاله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والتدب إلى الفضل. وقال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيل بن عيينة، العدل فى هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٥٠)، مسلم بنحوه (٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود.

وقوله: ﴿وَإِنِّي ذِي الْفُرْقَانِ﴾ أى يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْدُرُ تُبْدِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقوله: ﴿وَيَتَعَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال فى الموضوع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأما البغى فهو العدوان على الناس، وقد جاء فى الحديث «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعه الرحم»^(١). وقوله: ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾ أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لَمَّا لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ وقال الشعبى عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، رواه ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سىء كانوا يتعايرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

(قُلْتُ) ولهذا جاء فى الحديث «إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها»^(٢).

وقال الحافظ^(٣) أبو نعيم فى كتابه معرفة الصحابة: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى، حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنكدرى، حدثنا عمر بن على المقدمى عن علي بن عبد الله بن عمير، عن أبيه، قال: بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه، فانتدب رجلاً فأتى النبى ﷺ فقالوا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبى ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله» قال: ثم تلا عليهم هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِنِّي ذِي الْفُرْقَانِ وَبَيْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، قالوا: اردد علينا هذا القول، فرده عليهم حتى حفظوه، فأتى أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطاً فى مضر وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعنا أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، فكونوا فى هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا أذناناً، وقد ورد فى نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن رواه الإمام أحمد^(٤): حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنى عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفتاء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشّر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟ فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يعمته فى الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينفخ رأسه

(١) صحيح: أخرجه الترمذى (٢٥١١)، أبو داود (٤٩٠٢)، ابن ماجه (٤٢١١)، أحمد (١٩٨٦١)، من حديث أبى

بكرة، وانظر صحيح الجامع، برقم (٥٧٠٤).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم فى المستدرک (١١١/١)، برقم (١٥١)، وانظر الصحيحة (١٣٧٨).

(٣) ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب (١٤٦/١).

(٤) المسند (٢٩١٥).

كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى تواري في السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة، فقال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتوكتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله أنفاً وأنت جالس» قال: رسول الله؟ قال «نعم»، قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥)، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ، إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

(حديث آخر): عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد (١): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَنَّ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الْفَيْئِمَةَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦)

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالمهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْمَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَتَ تَدْرُونَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْضُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أى لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين (٢) أنه عليه الصلاة والسلام قال «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها» وفي رواية - وكفرت عن يميني - لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني الحلف، أى حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد (٣): حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبه - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا. هو

(١) المسند (١٧٤٥٩).

(٢) البخاري برقم (٥٥١٨)، مسلم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) المسند (١٣٢٠).

ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة» وكذا رواه مسلم^(١) عن ابن أبي شيبه به. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين^(٢) عن عاصم الأحول عن أنس رضى الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا عبد الله بن موسى، أخبرنا ابن أبي ليلى عن مزينة في قوله: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» البيعة لا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد فلنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صيلم بينى وبينه» المرفوع منه في الصحيحين^(٥).

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً لا يريد أن يفى له به، فهو كالمدلى جاره إلى غير منعة».

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَقْلُوبُونَ» تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضُوا غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ» قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه.

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: «أَنْكَبَتْ» يحتمل أن يكون اسم مصدر، «نَقَّضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ» أى انقاصاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أى لا تكونوا أنكابتاً جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: «تَنْتَهَدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» أى خديعة ومكرًا «أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً

(٢) البخاري برقم (٢٢٩٤)، مسلم برقم (٢٥٢٩).

(٤) المسند (٥٠٦٩).

(١) مسلم برقم (٢٥٣٠).

(٣) في التفسير (١٦٤/٤).

(٥) البخاري برقم (٣١٨٨)، مسلم (١٧٣٥)، من حديث ابن عمر.

(٦) المسند (٢٢٩٢٨).

﴿إِنَّ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أى تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا - ولله الحمد - فى سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم، وهم غارون ولا يشعرون، فقال له عمرو بن عبسة: الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدرًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها»^(١) فرجع معاوية بالجيش رضى الله عنه وأرضه، قال ابن عباس: «أَنَّ تَكْوِينَ أُمَّةٍ مِنْ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» أى أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلقات فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: «إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يَوْمَ» قال سعيد بن جبير: يعنى بالكثرة، رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: أى بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلْيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾ فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَشَاقِقَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا نلتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فترل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا الشوة بما صدقتم عن سبيل الله ولكر عذاب عظيم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ حِزْبٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عندكم ينفذ وما عند الله باقٍ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ جِمْامٌ﴾ [يونس: ٩٩] أى لوفى بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباعدًا ولا شحناه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخَالِيفِينَ﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴿[هود: ١١٨-١١٩]، وهكذا قال مهنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والبقير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أى خديعة ومكرًا لثلاث تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاده عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام، ولهذا قال ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوَةَ بِمَا صَدَقْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أى جزاء الله

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٥٨٠)، أبو داود (٢٧٥٩)، أحمد (١٦٥٦٧)، من حديث عمرو بن عبسة، وانظر صحيح الترمذي.

وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاه موعوده، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ مَا عِنْدَكُمْ بِغَدٍّ﴾ أى يفرغ وينقضى فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أى وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم، أى ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بنى آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة وهب بن منبه، وقال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس: إنها هى السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا فى الجنة. وقال الضحاك: هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا، وقال الضحاك أيضًا: هى العمل بالطاعة والانسراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله.

كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنى شريحيل بن شريك عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وفتح الله بما آتاه»، ورواه مسلم^(٢) من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به. وروى الترمذى والنسائى^(٣) من حديث أبى هانىء عن أبى على الجنى، عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى للإسلام، وكان عيشه كفافًا وفتح به». وقال الترمذى: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة. وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يعطى بها خيرًا»، انفرد بإخراجه مسلم^(٥).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الدِّينِ ؕ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الدِّينِ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر نذوب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة.

(١) المسند (٦٥٣٦). (٢) مسلم برقم (١٠٥٤).

(٣) صحيح: الترمذى برقم (٢٣٤٩)، وانظر صحيح الترمذى.

(٤) المسند (١١٨٢٨). (٥) مسلم برقم (٢٨٠٨)، من حديث أنس بن مالك.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطاً في أول التفسير، ولله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لتلاييس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، واحتجوا بهذه الآية، ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِمَشْرُكُوتِكَ﴾ أى أشركوا فى عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَرَكُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أى كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً﴾ أى رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية [البقرة: ١٠٦]، قال تعالى مجيباً لهم ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أى جبريل ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أى وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِّسَانُ عَرَبِيٍّ ثَبِيَّتٌ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلماذا قال الله تعالى: راداً عليهم فى افتراءهم ذلك ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِّسَانُ عَرَبِيٍّ ثَبِيَّتٌ﴾ أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه الثامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من

رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ. فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بنى الحضرمي فكانوا يقولون والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بنى الحضرمي، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمَ أَنتَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ إِتْمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ إِتْمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ إِتْمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ﴾ وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش .

وقال ابن جرير (١): حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمَ أَنتَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ إِتْمَا يَعْلَمُهُ بِئْسَ رَسُولٌ﴾ وقال النضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة، وقال عبيد الله بن مسلم (٢): كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية . وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافتري هذه المقالة، قبحه الله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٦﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موزع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحددين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل (٣).

(١) في التفسير (١٤/١٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/١٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٥٥٣)، مسلم (١٧٧٣)، من حديث أبي سفيان.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمان به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم وبشيتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى لا بد ولا عجب أن من هذه صفة ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة - وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقادة وأبو مالك،

وقال ابن جرير (١): حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزري، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد» ورواه البيهقي (٢) بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقتلتها، رضى الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أنى رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

(١) في التفسير (١٤/١٨٢).

(٢) البيهقي في الكبرى (٨/٢٠٨).

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله» وكنت أقاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن عباس، رواه البخاري^(٢).

وقال الإمام أحمد أيضاً^(٣): حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه، فضربت عنقه، فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال: «من بدل دينه فاقتلوه» وهذه القصة في الصحيحين^(٤) بلفظ آخر.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذا أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن ليم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة»^(٥)، وأنا أبداً، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

ثَلَاثَةٌ ۖ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۖ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ جُنْدِلًا عَنِ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم قد اتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم

(١) المسند (١٨٧٤).

(٢) البخاري برقم (٦٩٢٢)، من حديث ابن عباس.

(٣) المسند (٢١٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢٣)، مسلم برقم (١٨٢٤).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٤٥)، برقم (١٦٣٩).

الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه من بعدها، أى تلك الفعلة وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ﴾ أى تحاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوج ﴿وَتُؤْتَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نفيراً ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْمُدَيِّنَ مَكَكَ تَتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُنَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ نَمْرُتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا قال مهنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أى هنيئاً سهلاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَدَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ بَصُلُونَهَا وَيَنفَسُ الْفَرَارِيُّ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩] ولهذا بدلهم الله بحاليمهم الأولين خلفهما، فقال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيى إليهم ثمرات كل شىء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافة فدعا عليهم بسبع كسبج يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شىء لهم، فأكلوا العلهز وهو وير البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمتهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوة سراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال حتى فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم، وامتن به عليهم فى قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيكُمُ الْأَنْبَاءُ الَّذِينَ مَأْمَرُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ ذِكْرًا رَسُولًا﴾ الآية [الطلاق: ١٠-١١]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرُزُوقَكُمْ وَفَعَلْنَا لِكُلِّكُمْ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] إلى قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢] وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأمتهم، وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة قاله العوفى عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاها مالك عن الزهري رحمهم الله.

وقال ابن جرير^(١): حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عنز يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى ﷺ وعثمان رضى الله عنه

محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل، فقالت حفصة: والذي نفسى بيده إنها القرية التى قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ قال ابن شريح: وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة عن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٢﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٣٣﴾ مَنَعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ إليه أى احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحرية والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، وما فى قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية، أى ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أى فى الدنيا ولا فى الآخرة، أما فى الدنيا فمتاع قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نَعْلَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمُ إِلَيْنَا عَذَابَ غَلِيظٍ﴾ [القصص: ٢٤] وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَنَعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُؤْتِيهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٤-٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيِّقِ عَمَلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٦﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرخص فيه عند الضرورة - وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأضرار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى فى سورة الأنعام فى قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَعَلَى ذِي طُفْرِ وَيَمِ الْبَقْرِ وَالْفَنَرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُومُهُمَا إِلَّا مَا حَكَتْ طُفُورُهُمَا﴾ إلى قوله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْتَنَّهُمْ﴾ أى فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿يُظَلِّرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ كَلْبَيْتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] ثم أخبر تعالى تكرمًا وامتنانًا فى حق العصاة المومنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْمَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال بعض للسلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أى أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصى وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى تلك الفعلة والزلة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَوَلَّى بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٧﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آجِنَةً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٨﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وببرته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذى يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَّى بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين عن أبى العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذى يعلم الناس دينهم، وقال الأعمش عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبى العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟ فكان ابن مسعود رقى له، فقال: أخبرنى عن الأمة، فقال: الذى يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى قال: قال ابن مسعود: إن معاذًا كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقلت فى نفسى: غلط أبو عبد الرحمن، وقلت إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: أتدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذى يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ معلم الخير وكان مطيعًا لله ورسوله. وقد روى من غير وجه عن ابن مسعود، أخرجه ابن جرير. وقال مجاهد: أمة أى أمة وحده، والقانت المطيع وقال مجاهد أيضًا: كان إبراهيم أمة أى مؤمنًا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله. وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أى قائمًا بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿آجِنَةً﴾ أى اختاره واصطفاه كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَى﴾ [الأنبياء: ٥١]، ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴿١٠١﴾ أَي وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ، أَنَا أَوْ حِينَا إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرِّسَالِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٠٢﴾ أَيْ أُنْبِئَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٣﴾ كَقَوْلِهِ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي لَئِنْ صِرْتُ مُشْرِكًا لِدِينِي وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأَسْبُوعِ يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلْقَ وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَعَدَلُوا عَنْهُ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمَلَ خَلْقُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَلْزَمَهُمُ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَوَصَاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَأَنْ يَحْفَظُوا عَلَيْهِ مَعَ أَمْرِهِ لِإِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ وَأَخَذَ مَوَاقِفَهُمْ وَعَهْدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اتَّبَعُوهُ وَتَرَكَوا الْجُمُعَةَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مَتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ حَوْلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَتْرِكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا نَسَخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رَفَعَ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينِ هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقًا عَنِ الصَّخْرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ^(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدْ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعَ: الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» لَفْظَ الْبُخَارِيِّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلِنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضَى بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَاقِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ بِالْحُكْمِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾، أَي بِمَا فِيهِ مِنَ الزُّوْجَرِ وَالْوَقَائِعِ بِالنَّاسِ، ذَكَرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بِأَسْئَاتِهِمْ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدِّ لَهُمْ بِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَي مِنْ احْتِاجِ مِنْهُمْ إِلَى مَنَظَرَةٍ وَجَدَالٍ

(١) البخاري برقم (٦٦٢٤)، مسلم برقم (٨٥٥).

(٢) مسلم برقم (٨٥٦).

فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَكُمَّ بِدَكَّارٍ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾، أى قد علم الشقى منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا يَحْسَبَنَّ اللَّهُ أَن يَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَلِإِنَّ عَاقِبَتَهُ فَعَاقِبَةُ بِيئِلٍ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلِإِنَّ صَبْرَكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِكَ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يأمر تعالى بالعدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق عن الثورى عن خالد، عن ابن سيرين أنه قال فى قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبَةُ بِيئِلٍ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصرى وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يارسول الله لو أذن الله لنا لا نتصرونا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضى الله عنه ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرونا الله عليهم لتمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرونا عليهم لتمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله ﴿وَلِإِنَّ عَاقِبَتَهُ فَعَاقِبَةُ بِيئِلٍ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة^(١)، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم.

وقد روى هذا من وجه آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار^(٢): «حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المرى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين استشهد، فنظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به، فقال: «رحمة الله عليك إن كنت لما علمت لو صولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك» فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ ﴿وَلِإِنَّ عَاقِبَتَهُ فَعَاقِبَةُ بِيئِلٍ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعنى عن يمينه وأمسك عن ذلك، وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً هو ابن بشير المرى ضعيف عند الأئمة، وقال البخارى: هو منكر الحديث، وقال الشعبى وابن

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٩٥).

(٢) أخرجه البزار (٢/٣٢٧)، برقم (١٧٩٥).

جريح : نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لنرين عليهم فأنزل الله فيهم ذلك .
وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند^(١) أبيه : حدثنا هدية بن عبد الوهاب المروزي ، حدثنا
الفضل بن موسى ، حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال :
لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ :
لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنرين عليهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش
بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم -
فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَعَاقِبَةٌ فَعَاقِبَةٌ بِمِثْلِ مَا وَعُوقِبْتُمْ بِدِينِهِ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ
﴿ نَصِيرٌ وَلَا نَعَاقِبٌ ﴾ وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل
والندب إلى الفضل كما في قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] ثم قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] الآية . وقال : ﴿ وَالْجُرُوحُ فِصَاصٌ ﴾ [المائدة : ٤٥] ثم قال ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة : ٤٥] وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَعَاقِبَةٌ بِمِثْلِ مَا وَعُوقِبْتُمْ بِدِينِهِ ﴾
ثم قال ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا
بمشيئة الله وإعانتة ، وحوله وقوته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على من خالفك لا تحزن
عليهم فإن الله قدر ذلك ﴿ وَلَا تَكُفِ فِي صَبْتِكَ ﴾ أى غم ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ ﴾ أى مما يجهدون أنفسهم في
عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم . وقوله : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهدية وسعيه وهذه معية خاصة
كقوله : ﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتُنَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] وقوله لموسى وهارون :
﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] وقول النبي ﷺ للصدیق وهما في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ مَا
يَكُونُ مِنْ تَحْتِ ثَلَاثِينَ إِلَّا هُوَ رَاقِبُهُمْ وَلَا حَسْبَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا
كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا
عَلَيْكُمْ شُهودًا ﴾ [الآية : يونس : ٦١] ، ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى تركوا المحرمات ، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴾
أى فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم
ومخالفهم ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، ثنا محمد بن بشار ، ثنا أبو أحمد الزبيرى ، ثنا مسعر عن
ابن عون عن محمد بن حاطب قال : كان عثمان رضى الله عنه من الذين اتقوا والذين هم محسنون .

آخر تفسير سورة النحل ، ولله الحمد والمنة ، وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل

